التفكر في خلق الله

التفكر في خلق الله تزيدك قرباً وتزيدك عمقاً بوجوده تعالى، وكلما ازددت ذكراً ازددت نوراً، ويكبر العقل بكثرة الذكر وينتقل إلى القلب فيتسع العقل والقلب وتزداد الفكرة والتفكر في الخالق.

روى هشام بن عروة، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**إن الشيطانَ يأتي أحدَكم فيقولُ: مَنْ خلقَ السمٰواتِ؟ فيقولُ: اللهُ تعالى. فيقولُ: منْ خلقَ الأرضَ؟ فيقولُ: اللهُ تعالى. فيقولُ منْ خلق الله فإذا أحسَّ أحدُكم من ذلك شيئاً فليقلْ آمنت بالله وبرسولِهِ**»(١).

شرح الحديث:

القلب المنور بذكر الله تعالى لا يدخل فيه الشيطان لأنه يحترق ولكن الشيطان مسكنه القلب الغافل عن ذكر الله ﷻ.

إذا رمى الشيطان في خاطر أحدكم كيف شكل الله ﷻ؟ ومن خلق الله ﷻ؟ ومن أوجد الله ﷻ؟ فليقل: آمنت بالله ورسوله وكل ما يخطر ببالك فالله بخلاف ذلك، وتذكر قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى، الآية: ١١] ويذكر لنا النبي ﷺ، أن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله ﷻ خنس وإن نسي الله تبارك وتعالى التقم قلبه، أي أن الشيطان واضع خطمه ـ أي فمه وأنفه ـ على قلبه إذا ذكر الله تعالى انقبض الشيطان وخاف من نور الذكر، وإن نسي الله استولى الشيطان على قلب ابن آدم بالوسوسة والخواطر.

---

(١) رواه أحمد وعبد بن حميد في المنتخب.

الدليل القرآني

التفكر في عظمة هذا الخلق وقدرة الله تعالى على عباده لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٩٠، ١٩١] .

تفكّر في أعظم آية: طلوع الشمس من مشرقها، وغروبها من مغربها، واختلاف الليل والنهار، وفي خلق نفسك لقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذّاريات: الآيتان ٢٠، ٢١] .

أقوال الحكماء في التفكر

قال بعض الحكماء: لا تتفكَّر في ثلاثة أشياء:

١ ـ لا تتفكر في الفقر فيكثر همك وغمك ويزيد من حرصك.

روى الحسن رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة**»، قالوا: يا رسول الله وما دولتهم؟

قال: «**إذا كان يوم القيامة قيل: انظروا من أطعمكم كسرة وسقاكم شربة وكساكم ثوباً فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة**»[(١)].

٢ ـ ولا تتفكر في ظلم من ظلمك فيغلظ قلبك ويكثر حقدك ويدوم غيظك.

تقول السماء: يا رب ائذن لي أن أسقط على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك. تقول الأرض: يا رب ائذن لي أن أخسف على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك.

تقول الجبال: يا رب ائذن لي أن أخرّ على ابن آدم فقد طعم خيرك

(١) رواه الراسي في قضاء الحوائج.

ومنع شكرك.

وتقول البحار: يا رب ائذن لي أن أغرق على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك. يقول الحق: دعوني وخلقي لو خلقتموهم لرحمتموهم إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم.

٣ ـ ولا تتفكَّر في طول البقاء في الدنيا فتحب الجمع وتضيع العمر وتسوف في العمل، وذكر عن ابن عباس ﷺ أنه قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء بادية أنيابها مشوهة خلقها لا يراها أحد إلا كرهها فتشرق على الخلاق، فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفتها.

فيقال: هذه الدنيا التي تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها.

وفي خبر آخر أنه يؤمر بها فتلقى في النار.

فتقول: يا رب أين أتباعي وأصحابي فيلحقون بها.

الفرق بين التفكر والوسوسة

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله**» إذا قذف الشيطان في خاطرك ما شكل الله؟ قل: إن الله لا يشبه شيئاً من خلقه واصرف عنك الفكرة لأنه وسوسة[1].

التفكر في خلق الإنسان عبادة

يجب التفكر في مخلوقات الله تعالى واختلاف الليل والنهار لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يُونس، الآية: ١٠١].

ومن آيات الله تعالى الإنسان مخلوق من نطفة، يقول تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ [الزُّمَر، الآية: ٦].

يقول سيد قطب رحمه الله في تفسيره «ظلمات ثلاث»:

---

(١) تنبيه الغافلين.

١ ـ ظلمة الكيس الذي يغلف الجنين.

٢ ـ ظلمة الرحم الذي يستقر فيه هذا الكيس.

٣ ـ ظلمة البطن الذي تستقر فيه الرحم.

والرسول الكريم عندما يخبرنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات. إنما يدل بذلك الفضل العظيم الذي تقدمه الأم للجنين، الأم تنقل لابنها الغذاء والأوكسجين والأجسام المضادة من دمائها، وهو ينقل إليها ما يخرج من إفرازات وسموم ناتجة عن عمليات البناء والهدم المستمرين مثل ثاني أكسيد الكربون والبولينا فتتقبلها وتأخذها في دورتها الدموية حيث تفرزها بواسطة الكلى عن طريق البول[١].

تفكر وأنت في رحم أمك من يحميك

الغشاء الأمينوسي: كيس رقيق يحيط بالجنين من كل جانب ويحتوي هذا الكيس على السائل الأمينوسي الذي يزيد مع زيادة نمو الجنين، واسم السائل المتعارف عند العوام ـ ماء الرأس ـ تنزل مع نزول الجنين.

فوائد هذا السائل في الكيس مع الجنين:

١ ـ يحتوي السائل الأمينوسي على مواد غذائية من سكريات وبروتينات وأملاح غير العضوية يمتصها الجنين.

٢ ـ حماية الجنين ووقايته من الصدمات المفاجئة والحركات العنيفة التي قد تتعرض لها الأم.

٣ ـ يسمح للجنين بالحركة التامة داخل الرحم.

٤ ـ جهاز تكييف للجنين فهو يحتفظ للجنين بحرارة ثابتة تقريباً.

٥ ـ يمنع السائل الأمينوسي من الالتصاق بالجنين، وذلك لأن التصاق الغشاء بالجنين من العوامل الهامة في حدوث التشوهات الخلقية.

---

(١) سيد قطب في تفسيره.

obeikandl.com

٦ ـ يمنع السائل الأمينوسي جيب المياه الذي يوسع عنق الرحم أثناء المخاض، وهو الذي لا يتسع حتى للخنصر فإذا به يتسع للوليد بكامله ـ أكثر من خمس أصابع ـ وفي نفس الوقت يقي الجنين من أن ينحشر وينضغط بين جدران عنق الرحم أثناء المخاض والولادة، ولولا لطف الله سبحانه في وجود جيب المياه لتهشم رأس الجنين أثناء الولادة.

٧ ـ لا يكتفي السائل الأمينوسي بكل هذا لكنه يقوم بتمهيد وتعقيم الطريق للجنين عندما ينفجر جيب المياه ـ أي ماء الرأس ـ فيقتل الميكروبات الموجودة في المهبل قبيل الولادة مباشرة حتى يضمن للجنين طريقاً ممهداً معقماً[١].

التفكر في الحيوانات وقدراتها

قال طاوس: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك؟

قال: نعم من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة فإنه مثلي.

تفكر في المخلوقات وما أعطى الله لكل صنف من المعاملات يعجز الإنسان أن يفهمها منذ الوهلة الأولى[٢].

ماذا وجدوا في قرى النمل؟!

الأعجب ماذا وجد العلماء في قرى النمل؟! حيث وجدوا أمام أعشاش النمل فتاتاً صغيراً أبيض اللون فأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا الشيء، فوجدوا أن النمل قد ألقى بها خارج عشه لأن هذه الحبة الصالحة للإنبات لو بقيت في العش بمجرد أن يصيبها الرطوبة ستنبت وتسد عش النمل وتهدمه، وإذا ترك الحبة في العش يشق الحبة نصفين حتى لا تنبت، ولكن العلماء فوجئوا في أعشاش النمل بوجود حبة الكزبرة مشقوقة أربعة

(١) وجود الله في الدليل العقلي والنقلي.
(٢) تنبيه الغافلين.

أقسام دون غيرها من الحبوب، فبحثوا عن هذه الظاهرة فوجدوا أن حبة الكزبرة تتكون من أربعة أقسام، فكان لا بد أن يشقها النمل إلى أربع أقسام من أجل أن لا تنبت فمن علم النمل أن يفعل ذلك؟[١]

لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العَنكبوت، الآية: ٦٠].

عجائب التمساح

يبلغ طول التمساح عند خروجه من البيضة ثلاثة أمثال طول البيضة التي خرج منها فكيف كان وضعه بداخلها؟

قال العلماء: بقدرة الله وهو بداخل البيضة له سن خاصة في مقدمة فمه يطلق عليها اسم «سن البيضة» يستعين بها في تكسير القشرة الخارجية الصلبة للبيضة ويسقط هذا السن بمجرد خروج التمساح من البيضة، ويستطيع التمساح منذ اللحظة الأولى أن يدافع عن نفسه بنفسه، وللتمساح صديق حميم من الطير يسمى «الشقراق» يحمله أحياناً على ظهره أثناء سباحته على وجه الماء، فإذا أمسك بفريسته وأكلها فتح فكيه الواسعتين القادرتين على طحن الطعام من فمه ويُسرّ التمساح لهذه العملية لأن هذا الطائر يزيل بمنقاره الحاد كل ما علق بين أسنان هذا الوحش المفترس.

وهل أمعنَّا النظر بوفاء التمساح والطائر لبعضهما البعض؟! إذ لا يطبق التمساح فكَّيه إلا بعد أن يخرج «الطير الشقراق» من بينهما، والشقراق عندما يرى عدواً قادماً خلف التمساح يصرخ صرخة يفهم عليه التمساح فيغوص في الماء في الحال، كيف اتفقا؟ كيف تفاهما؟

لا يدري العلم إنها قدرة الله التي خلقت فأبدعت وقدَّرت فأحكمت[٢].

(١) غريزة أم تقدير إلٰهي، شوقي أبو خليل.
(٢) غريزة أم تقدير إلٰهي، شوقي أبو خليل.

عجائب الدجاج

عندما قلَّد الإنسان الدجاجة في حضانة البيض انتظر (٢١) يوماً وهي مدة حضانة البيض، فلم يخرج معه شيء وخرج الصوص ميتاً وغير مكتمل خلقه.

فتتلمذ الإنسان عند الدجاجة وراح يراقبها فوجدها تقلب البيض كي لا تنفجر العروق التي تتكون في الصوص في القسم السفلي، فمن علَّم الدجاجة عملها الحكيم هذا؟ هل رأت العروق داخل البيضة قبل انفجارها أم أن الصوص قال لها: قلِّبيني خوفاً على عروقي؟[١]

التفكر في الآلاء والنعماء

ففي الأثر: «تفكَّروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله فإن تفكر ساعة أفضل من عبادة ستين».

سئل بعض الحكماء: ما الفرق بين الآلاء والنعماء؟

قال: كل ما ظهر من النعم آلاء وما بطن من النعم نعماء.

مثال: أن اليدين آلاؤه وقوة اليدين نعماؤه، والوجه آلاؤه وحسن الوجه وجماله نعماؤه، الفم آلاؤه وطعمه نعماؤه.

ويقال الآلاء والنعماء واحد لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم، الآية: ٣٤].

التفكر يزيد في محبته تعالى

تفكر الإنسان بعد موته عندما يصبح عظاماً من يحييه مرة ثانية! أليس الذي خلقه أول مرة بقادر على أن يعيده مرة ثانية؟ بلى وهو الخلاق العليم، لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [يُونس، الآية: ٣٤].

الحق يضرب مثلاً حيًّا على قدرته سبحانه في إحياء الموتى، يقول

(١) غريزة أم تقدير إلهي، شوقي أبو خليل.

سبحانه: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٩].

العزير صاحب القرية تولاه منذ طفولته

ذلك أن اليهود بعد سيدنا موسى عليه السلام قتلوا الأنبياء وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها، ولكن طفلاً لم يعجبه مشهد قتل الأنبياء فخرج شارداً في الصحراء مهاجراً وهارباً فقابله شخص في الطريق، فسأله: لماذا أنت شارد؟

قال: خرجت أطلب العلم.

وكان هذا الشخص جبريل عليه السلام فأعلمه أن الله أمره أن يعلمه التوراة، فحفظها فصار واحداً من أربعة هم فقط حفظوا التوراة: موسى، عيسى، العزيز، اليسع.

لأن الكتب قديماً لم تكن تكتب على ورق رقيق مثل زماننا بل كانت تكتب على الأحجار وسعف النخيل، لذلك كان وزن التوراة يقدر بسبعين حمل بعير، وحين رجع عزير حافظاً للتوراة اندهش قومه وقالوا: لا بد أنه ابن الله لأن الله أعطاه التوراة وآثره على قومه[1].

العزير وإحياء الموتى

كان العزير يسير في الطريق فمر على أرض كأنها جنة من كثرة الأشجار والثمار، فقال: أنَّى يحيي هذه بعد موتها ـ أي من يحييها بعد موتها وفنائها ـ؟! أراد الله أن تكون الإجابة تجربة عملية فيه وبحماره

(١) شرح الأحاديث القدسية، الشعراوي.

وبطعامه، فأراد أن ينام فأماته الله مائة عام وبعد مئة عام بعثه، فسأل نفسه: كم نمت يا ترى؟ فأجاب نفسه: نمت يوماً أو بعض يوم، لأنه لم يتغير في شكله ولا في طعامه من عصير وعنب ولم يفسد طعامه، ولكن أين العجب؟ العجب في حماره الذي أصبح عظاماً وجاءه الوحي: بل لبثت مئة عام، انظر إلى حمارك أصبح عظاماً والآن سترى كيف يحيي الله هذه بعد موتها رؤي العين.

وقد رأى العزير إجابة: رأى كل عظمة في حماره وهي ترفع من الأرض وشاهد كل عظمة تركب مكانها، وبعد تكوين الهيكل العظمي للحمار بدأت رحلة كسوة العظام لحماً، وبعد ذلك رجعت الحياة للحمار كما كان.

لقد وجد العزير إجابة على قدرة إحياء الموتى بعد فناءها، وبعد ذلك تذكر قريته التي خرج منها وأراد العودة إليها، فلما عاد إليها وجدها قد تغيرت بعد مرور مائة عام، وكان له مولاة ـ أي جارية ـ في أسرته، وكانت هذه الجارية قد عميت وأصبحت مقعدة فلما دخل قال: أين العزير؟

قالت الجارية: ذهب العزير من مئة عام ولا ندري أين ذهب ولم يعد.

قال: أنا العزير.

قالت: إن للعزير علامة أنه مجاب الدعوة.

فدعا العزير ربه أن يرد عليها بصرها، فبرئت فلما برئت نظرت إليه فوجدته هو العزير، فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزير قد عاد، بعد ذلك ذهب العزير إلى ابنه فوجده رجلاً قد تجاوز مائة عام وكان العزير لا يزال في سن الخمسين.

ولذلك نرى الشاعر يقول مُلْغِزاً: وما ابن رأى أباه وهو في ضعف عمره؟

المقصود بهذا اللغز هو العزير، فقد التقى بابنه فوجده عجوزاً والعزير ما زال شاباً.

قال الابن: كنت أسمع أن لأبي علامة بين كتفيه ـ شامة ـ فلما كشف العزير لابنه وجد الشامة.

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة، الآية: ٢٥٩] هذا تأكيد وتعريف بقدرة الله تعالى على أنه يبسط الرزق ويقبضه، وإحياء الموتى، فتفكر[١].

ما يرشد إليه الحديث تربوياً ودعوياً:

١ ـ أن يتحصَّن الإنسان بالأذكار ليطرد وسوسة الشيطان من قلبه وعقله.

٢ ـ التفكر في خلق الله وقدرته وإبداع جمال خلقه بحد ذاتها عبادة وتعتبر أيضاً من أرقى العبادات لأنك تدخل في دائرة الفكر إلى قدرة خالقك ومكون الأكوان.

٣ ـ لو همس الشيطان في أذنك وقال لك: لا يوجد يوم حساب بل الموت بعد الحياة ثم الموت وهلمّ. قف لحظة إيمان: هل أتى أحد من البشر وقال: إني أتيت إلى الدنيا ثم مت والآن رجعت.

٤ ـ من كم قرن مات أفلاطون وأرسطو وحتى الآن لم يرجعوا، هذا دليل قطعي لا جدال فيه لأنه لا حياة بعد الموت ولا رجوع بعد الفناء إلا يوم الحساب.

(١) شرح الأحاديث القدسية، الشعراوي.

obeikandl.com